



العقل في فكر الحارث المحاسبي

أحمد ضياء الدين حسين

إن الحديث عن أي شخصية مهمة، يتطلب منا - بالإضافة إلى العوامل الأخرى - معرفة العصر الذي نشأ فيه، لأن عامل البيئة وما يحيط به من عوامل سياسية واجتماعية وثقافية، له تأثير كبير في تكوين هذه الشخصية ووضعها في مسار معين. ولذلك قام الباحث بتسليط الأضواء على نشأة المحاسبي وعلمه وبيئته ومن ثم القيام بالبحث المتعلق بمكانة العقل عنده. نشأته وسيرته العلمية:

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل من الزهاد المشهورين، ولقب بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسه. وقد ولد المحاسبي في مدينة البصرة ولم تذكر المصادر السنة التي ولد فيها^(١). وقد نشأ المحاسبي في البصرة، وتلقى العلم فيها، ثم خرج إلى بغداد في وقت مبكر من حياته، وكانت نشأته في جو من المنازعات الفكرية، نظراً لوجود المعتزلة وكثرة المتكلمين. لقد عاش المحاسبي حياة غنية في بدايتها ولكنه آثر الزهد، وأصبح زاهداً تقياً ورعاً شديد الخوف من الله تعالى، حتى أن آثار الجوع كانت ترى على وجهه، كما يؤكد ذلك تلميذه الجنيد^(٢). وحينما ننظر إلى الورع الشديد المصاحب للتقوى الذي كان يتصف به نجده ينعكس على مؤلفاته، حيث مال في بحثه وتأليفه إلى الغوص في نزعات النفس الإنسانية وكيفية علاج ذلك.

كان المحاسبي مستقلاً في فكره، فلم يفرض على نفسه الالتزام بفكر معين، وقد انعكس هذا على حياته وسيرته العلمية، وهذا الاستقلال زاده تعمقاً في دراسة أحكام الإسلام، فأصبح بذلك من كبار العلماء، ومن أزهدهم وأورعهم. ونال المحاسبي بذلك تقدير العلماء في عصره ومن بعدهم، ومن ثنائهم عليه: قال الإمام أحمد: "ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء، ولا سمعت في علم الحقائق مثل هذا الكلام"^(٣). وذكره ابن النديم بقوله: "كان فقيهاً متكلماً، كتب الحديث وتكلم في الزهد والورع"^(٤).

وقال عنه الخطيب البغدادي: "كان عالماً فهماً، له مصنفات كثيرة، في أصول الديانات، أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة في علم الظاهر والباطن"^(٥).

أما مآخذ بعض العلماء عليه: فنظراً لاشتغال المحاسبي بعلم الكلام من خلال تصديهِ للمعتزلة وبعض الفرق الأخرى والرد عليهم، فقد انتقده الإمام أحمد بذلك مخافة أن يكون سبباً في انتشار الشبهات التي عرضها المحاسبي للرد عليها، لذلك كان الرد منصباً على الأسلوب والطريقة لا على الآراء والاعتقاد^(٦).

مؤلفاته العلمية:

لقد بلغت مصنفات المحاسبي نحو مائتي مصنف^(٧)، معظمها في السلوك والأخلاق وأحوال النفس الإنسانية منها ما هو محقق مطبوع ومنها ما لا يزال مخطوطاً.

ومن المصنفات المتعلقة بالعقل:

١- شرف العقل وماهيته، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

٢- التوهم، تحقيق محمد عثمان الخشن.

٣- العقل وفهم القرآن، تحقيق حسين القوتلي.

عقيدته:

اهتم المحاسبي بفكر المدرسة النصية التي كان إمامها أحمد بن حنبل، تلك المدرسة التي حملت النصوص الواردة في الصفات على ظاهرها، والأخذ بما ورد في الكتاب والسنة دون تأويل^(٨).

وفاته:

توفي المحاسبي - رحمه الله - بعد رحلة سادها الصلاح والطاعة والإخلاص لدين الله، وكان ذلك في مدينة بغداد سنة ٢٤٣هـ^(٩).

البيئة التي عاشها المحاسبي:

كانت البيئة السياسية في عصره مضطربة حيث كان النفوذ للأعاجم فيها والذي تسبب في ظهور الخلاف بين العرب والعجم مما أثر على مجرى الحياة بين الناس، هذا على الصعيد الداخلي وأما الخارجي فقد كانت هنالك علاقات بين الدولة العباسية والأمم المجاورة، والتي كان لها الأثر في تسلسل الأفكار المختلفة وانشغال الدولة والناس فيما بعد^(١٠). عاش المحاسبي في تلك البيئة السياسية، ولكنه لم يسجل عليه أي حادثة تؤكد تقربه من الخلفاء والحكام، مع أنه كان متأثراً بالأحداث السياسية، وله فكر سياسي، وبشكل خاص فيما يتعلق بالخلافة والقضاء والإمارة^(١١).

البيئة الاجتماعية:

عاش المحاسبي في بيئة ساد فيها الإسراف والترف والتبذير، فقد كثر المال وظهرت أنواع كثيرة من التجارة والصناعة والزراعة، فعمّ الازدهار والرفاهية البلاد والعباد، ولكن المحاسبي لم يتأثر بهذه المظاهر المغربية، وآثر حياة الزهد والورع^(١٢).

البيئة الثقافية:

كما نشطت الحياة السياسية والاجتماعية في ظل الدولة العباسية، نشطت كذلك الحياة الثقافية، وكان نشاطها ملحوظاً، ويعود السبب إلى وجود الثقافات المتعددة من فارسية ويونانية وهندية وغيرها نتيجة الإقبال على الترجمة والاهتمام بها، وإنشاء دار الحكمة من قبل المأمون، فانبعثت هذه الثقافات المتنوعة نتيجة الفتوحات الإسلامية واختلاط المسلمين بغيرهم^(١٣). نشأ المحاسبي في هذا الوسط المتراحم بأنواع الثقافات والتيارات الفكرية المختلفة، ولكنه لم يتأثر بأي منها. وقف المحاسبي من هذه التيارات الفكرية موقف الناقد الفاحص، الذي يرفض قبول أي شيء إلا إذا ثبتت صحته^(١٤).

المبحث الأول:

معنى العقل في اللغة وأهميته في الكتاب والسنة، وأقوال العلماء فيه، ومعناه عند المحاسبي.

ويتضمن الطالب التالية:

المطلب الأول: معنى العقل في اللغة:

عقل - يعقل - عقلاً، معقولاً، وهو عاقل، وعقول، ورجل عاقل: وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير: إذا جمعت قوائمه، وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذاً من قولهم: قد اعتقل لسانه: إذا حبس، والعقل: التثبت في الأمور، وسمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط بالمهالك^(١٥).

المطلب الثاني: مكانة العقل في الكتاب والسنة:

العقل في القرآن الكريم: تهتم التربية الإسلامية بالعقل وترفع من شأنه وهذا الاهتمام يبدو من خلال ما عرض القرآن الكريم في سورة العنكبوت من الآيات الدالة على معنى العقل، أو الأفعال الدالة عليه، وتشير هذه الآيات بمجموعها إلى التفكير والاعتبار والتدبر والتأمل، وكل هذه الآيات تدل على العقل ووظيفته. أما لفظ "عقل" فإنه لم يرد في القرآن ولكن ورد ما يدل على العمليات العقلية، مثل يعقلون، يفقهون، يتدبرون، يتفكرون. قال الله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهَمٌّ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٦).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧)، وقال أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (١٨)، وقال تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ (١٩).

نلاحظ من خلال الآيات الكثيرة التي عرضها القرآن الكريم، الاهتمام بالعقل وحثه على التأمل والتدبر والتفكير، وهذا يدل على مدى الاهتمام الكبير الذي يولييه القرآن الكريم إلى العقل وأن العقل طريق الإنسان إلى الإيمان بالله - سبحانه وتعالى.

العقل في السنّة:

أشارت السنّة النبوية الشريفة إلى العقل وإعماله، كما أشار القرآن الكريم، فقد حث الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الاجتهاد وأقره، والاجتهاد إنما يكون بإعمال العقل، وذلك من خلال التفكير في المسألة للوصول إلى حل لها، وأقر الحاكم على ذلك إذا حكم فاجتهد في حكمه فأصاب الحكم كان له أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. قال - صلى الله عليه وسلم -: "إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب كان له أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر" (٢٠). وهذا الإقرار من الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدل على إعمال العقل وذلك بدراسة النصوص الشرعية واستنباط الحكم الشرعي من خلالها.

وقد ورد أيضاً ما يدل على العقل في السنّة النبوية وأهميته، وذلك في قصة الصحابي "ماعز" الذي ارتكب جريمة الزنا، وجاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أجل أن يطهر نفسه، وأقر على نفسه أمام الرسول ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى أهله وقال لهم: "أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً، فقالوا ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى" (٢١). يتبين من خلال هذا الحديث اهتمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعقل، لما يترتب عليه من أمور على أساسها ينفذ الحكم الشرعي: أو يبقى قيد عدم التنفيذ، ولذلك سأل عن ماعز وألح في الأسئلة، لأن الأمر خطير، ويترتب عليه حكم شرعي.

وأما بخصوص الأحاديث التي رواها كثير من العلماء في كتبهم ونسبوها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - منهم المحاسبي، وأبو بكر بن أبي الدنيا والغزالي، فإن العلماء قد تكلموا في هذه الأحاديث كثيراً، وانقسموا إلى قسمين، فمنهم من قال بصحة هذه الأحاديث، ومنهم المحاسبي وأبو بكر بن أبي الدنيا واستشهدوا بها في كتبهم، والبعض الآخر أنكر مثل هذه الأحاديث وقال إنها موضوعة والبعض قال بضعفها، فابن حبان يقول: "لست أحفظ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - خيراً صحيحاً في العقل، لأن أبان بن أبي عياش. وسلمة بن وردان، وعمير بن عمران، وعلي بن زيد، والحسن بن دينار، وعباد بن كثير، وميسرة بن عبد ربه، وداود بن المحبر. ومنصور بن صفر

وذويهم، ليسوا ممن أحتج بأخبارهم فأخرج ما عندهم من الأحاديث في العقل" (٢٢). وقال ابن الجوزي: "المنقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في فضل العقل كثير إلا أنه بعيد الثبوت" (٢٣). وقال محقق كتاب ابن أبي الدنيا: "العقل وفضله"، عن الأحاديث التي وردت في هذا الكتاب مرفوعة قال: إن الأحاديث المرفوعة التي جاءت في فضل العقل لا تصح نسبتها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم" (٢٤). وذكر الشيخ ناصر الدين الألباني في ذلك قولاً فيما يخص كتاب ابن أبي الدنيا قال: "ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شيء، وهي تدور بين الضعف والوضع وقد تتبعت ما أورده أبو بكر بن أبي الدنيا في كتبه "العقل وفضله" فوجدتها كما ذكرت لا يصح منها شيء، فالعجب من مصححه محمد زاهد الكوثري كيف سكت عنها" (٢٥). ولكن العلماء الذين أخذوا بهذه الأحاديث، ونسبوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قالوا: إنها تتفق مع روح الإسلام ولا تخالفه. وذلك لأن القرآن أشار إلى العقل وأهميته وحث على التفكير والبحث والعمل وهذا ما تبناه الحارث المحاسبي (٢٦). ومن هذه الأحاديث التي رواها المحاسبي وغيره، حديث: "لما خلق الله العقل، قال له: أقعد فقعد: ثم قال له أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال: انظر فنظر، ثم قال تكلم فتكلم... (٢٧). ومنها حديث: "أنا الشاهد على الله - عز وجل - أن لا يعثر عاقل إلا رفعه الله - عز وجل - ثم لا يعثر إلا رفعه حتى يجعل مصيره إلى الجنة" (٢٨).

ونخلص إلى نتيجة، وذلك من خلال تتبع بعض هذه الأحاديث أنها موضوعة والبعض أنها ضعيفة وواهية لا يصح منها شيء. أن ينسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم. وقد اهتم السلف بالعقل وبيّنوا أهمية العقل، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - قد ورد في كتابه إلى أبي موسى الأشعري دعوة إلى إعمال العقل إذ يقول: "ولا يمنحك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك (عقلك) وهديت فيه لرشدك، فإن مراجعة الحق خير من التماذي في الباطل" (٢٩). ويتضح من هذا القول اهتمام عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - بالعقل، وحثه الولاية على إعماله حين إصدار حكم شرعي على شخص أن يعود ويفكر في هذا الحكم، وإن وجد غير الذي حكم به لا مانع من العودة إلى الحق. وما كان الاجتهاد والقياس إلا إعمال العقل وإعطاءه الحرية في استنباط الأحكام من النصوص.

وعن مدى أهمية العقل، لا بد لنا من ذكر جملة من أقوال العلماء تبين مدى أهمية العقل. ورد عن معاذ بن جبل (ت ١٨هـ) قوله (٣٠): "لو أن العاقل أمسى وأصبح وله ذنوب بعدد الرمل، لكان

وشيكا بالنجاة والسلامة. والتخلص منها، ولو أن الجاهل أمسى وأصبح وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل لكان وشيكا ألا يسلم منها مثقال ذرة، قيل وكيف ذلك؟ قال: لأن العاقل إذا زل تدارك ذلك بالتوبة، والعقل الذي قسم له، والجاهل إنما هو بمنزلة الذي يبني ويهدم فيأتيه من جهله، ما يفسد صالح عمله" (٣١). وقال الإمام الحسن البصري (ت ١١٠هـ): "ما يتم دين الرجل حتى يتم عقله وما أودع الله امرءاً عقلاً إلا استنفذه به يوماً" (٣٣). وقيل لعطاء بن رباح (ت ١١٤هـ) (٣٤) ما أفضل ما أعطي الإنسان؟ قال "العقل عن الله - عز وجل" (٣٥). ويؤكد الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ) (٣٦) على أهمية العقل بقوله: "العقل منبع العلم، ومطلعه وأساسه" (٣٧). ويعنى بذلك أنه لا يستقيم علم ولا دين بلا عقل، لأن الإنسان غير العاقل غير مطالب بشيء.

يقول ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) (٣٨): "مدار الأمر كله على العقل، فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل، وثمره العقل فهم الخطاب وتلمح المقصود من الأمر، ومن فهم المقصود وعمل على الدليل، كان كالباني على أساس وثيق" (٣٩). وقال أيضاً: "من سار مع العقل، وخالف طريق الهوى ونظر إلى العواقب أمكنه أن يتمتع من الدنيا أضعاف ما يتمتع من استعمل الشهوات" (٤٠). وقال: "العاقل يدبر بعقله عيشته في الدنيا" (٤١).

وفي جملة هذه الأقوال، يؤكد العلماء على أهمية العقل إذ بالعقل يستطيع الإنسان أن يعرف ما ينفعه وما يضره وبالعقل يستطيع المرء أن يوزن الأمور ويضعها في مكانها الصحيح، وبالعقل يستطيع الإنسان أن يتدارك ما فاته وقصر فيه في حق الله عز وجل. ومن غير العقل لا يستطيع الإنسان أن يميز بين الحق والباطل ولا ما ينفعه مما يضره. ويعتبر العقل أساس ومنبع العلم، لأن الإنسان يكتسب العلم ويبعد فيه عن طريق أعمال عقله، وإشغاله بالتفكير والتحليل. لأن فاقده لا يمكن أن يتداركه. وفاقده العقل لا يستطيع أن يتعلم ولا أن يبديع، لأن فاقده الشيء لا يعطيه.

٢- معنى العقل عند المحاسبي:

لقد عرف الإمام المحاسبي حينما سئل عن العقل ما هو؟ فقال: للعقل ثلاثة معان:

أحدها: هو معناه لا معنى له في الحقيقة. يقصد بذلك العقل الغريزة (٤٢).

وأما المعنى الثاني فهو الفهم لإصابة المعنى (٤٣).

والمعنى الثالث - العقل بمعنى البصيرة والمعرفة (٤٤).

وقد وضع المحاسبي كل معنى من هذه المعاني، وشرحه وبينه، وضرب الأمثلة عليه.

فالعقل بمعنى الغريزة، قال عنه: هذا المعنى يشترك فيه أكثر الخلق. وبه أقام الله الحجة على خلقه، لم يطلع الله عليه أحداً لا في نفسه ولا في غيره^(٤٥). والعقل بهذا المعنى عرف الناس عن طريقه خالقهم وشهدوا على أنه خالق، وعرفوا به ما يضرهم وما ينفعهم. وهذا المعنى يعرفه الناس عن طريق أفعال الجوارح، إذا أن الناس يستدلون على أن هذا الإنسان عاقل إذا رأوا من أفعاله ما يدلهم على ذلك أن يميّز بين ما يضره وما ينفعه، وإذا رأوه خلاف ذلك، لم يستطع أن يميّز بين الخير والشر وما يضره وما ينفعه سموه أحقق، وإذا كان لا يعقل ما يفعل سموه مجنوناً^(٤٦).

واستدل المحاسبي على هذا المعنى، وذلك من خلال تمييز الإنسان بين مسميات الأشياء، فهو غريزة أودعها الله في الإنسان، تنحى وتكتسب عن طريق التعلم لمسميات هذه الأشياء. وهذا ما حصل مع آدم عليه السلام، حينما أمره الله عز وجل أن يخبر الملائكة بأسماء لأنه علمه إياها، أي أنه لولا أن الله علمه مسميات هذه الأشياء لم يستطع أن يخبر الملائكة بها^(٤٧). وذلك أن الملائكة حينما طلب الله منهم ذلك - قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾^(٤٨). وقد أشار إلى هذا المعنى نفسه ابن الجوزي إذ يقول: "والتحقيق في هذا أن العقل غريزة، كأنها نور يقذف في القلب، فيستعد لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات، واستحالة المستحيلات ويتلمح عواقب الأمور"^(٤٩). أي أن الإنسان يدرك الأمور حلالها من حرامها عن طريق الغريزة التي أودعها الله في الإنسان. وإلى هذا المعنى أشار الإمام أحمد، بقوله: "إن العقل غريزة"^(٥٠).

أما المعنى الثاني: الفهم لإصابة المعنى، فقد أشار إليه بقوله: "فكل بالغ من الجن والإنس من الذكور والإناث ممن أمره الله تعالى ونهاه وتوعده، بإرسال النذر، وإنزال الكتب وآثار آيات التدبر، فحجة العقل لازمة له، إذ أنعم الله عليه بالعقل عليه ومعرفة البيان"^(٥١). إن الله - سبحانه وتعالى - يبين للناس أوامره ونواهيه، وذلك من خلال الكتب التي أنزلها والرسول التي بعثها، وذلك ليكون حجة على الناس، يوم القيامة، ينجو من نجا عن بيئة، ويهلك من هلك عن بيئة. قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(٥٢). وهذا المعنى يشمل كل ما سمع الإنسان من أمور الدين والدنيا أو حس أو ذات؟ فسماه الخلق عقلا، وسموا فاعله عاقلاً^(٥٣). إذ أن الإنسان ببصيرته النافذة يستطيع أن يتعرف على قدرة الله عز وجل في هذا الكون. وتسخير ما فيه لمصلحة الإنسان. والذين يوقنون بوعده الله وتوعده وأفردوه بالعبادة والإخلاص له وحده وذلك، ابتغاء مرضاته، واجتناب سخطه، فخافوا وخشعوا لله عز وجل، واجتهدوا بالعبادة، وسلكوا سبيل الرشاد بالبصائر النافذة على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فأحل الله عليهم

رضوانه، وأعد لهم جزيل ثوابه، وتدبروا معاني قوله في كتابه العزيز فرضي عنهم وأثنى عليهم، هذا هو العقل عن الله عز وجل.

وقد أشار المحاسبي إلى هذا بقوله: "هذا هو العقل عن الله عز وجل، ومن نزل عن ذلك ومعه غريزة العقل التي فرق الله بها بين العقلاء والمجانين، فهو غير عاقل عن الله عز وجل، ولكنه عاقل للبيان الذي لزمته به الحجة من أجله" (٥٤). ولذلك وصف الله عز وجل في كتابه رجلاً وسمى لهم عقلاً، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَعْقلُونَ بِهَا﴾ (٥٥). أي لا يفقهون عن الله عز وجل، وقد سمي الله عز وجل بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلاً للبيان الذي لزمته به الحجة. قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٦). أخبر أنهم لا يعقلون عنه عظيم قدره المبين عنه (٥٧). وقد وصف الله عز وجل الذين لا يتحرك لديهم عقل الفهم وعقل البصيرة، وأن لهم عقل الغريزة فقط بأنهم كالأنعام بل أشد ضلالة. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٥٨).

والفهم هو الظاهرة العقلية التي تؤدي إلى إصابة المعنى من ناحية، والقدرة على التعبير عن هذا المعنى بشكل من أشكال البيان من ناحية أخرى. والفهم عند الحارث المحاسبي ليس فهماً سكنوياً جامداً بل هو على وجه الدقة فهم متحرك وحيٌّ معاً فهو متحرك باتجاه الأشياء والظواهر الموجودة في الخارج، ما يتعلق منها بالحس وما يتعلق منها بالدنيا وما يتعلق منها بالروح وما يتعلق منها بالآخرة، وهو حي لأنه يتصدى لأشياء موجودة، ولكل شيء من هذه الأشياء معنى، هو أشبه ما يكون بحياة هذا الشيء نفسه فإن أصابه الإنسان بعقله فقد حقق معنى الفهم واستقام البيان (٥٩).

ولذلك فالذين لا يستطيعون أن يصيبوا معاني هذه الأشياء سواء ما كان يتعلق منها بالدنيا أو الآخرة، عابهم الله عز وجل، وهذا الأمر متحقق في أهل الكتاب. قال تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٠).

العقل بمعنى البصيرة والمعرفة:

أكد المحاسبي هذا المعنى بقوله: "والمعنى الثالث هو البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى" (٦١). وكما أن الفهم عند الحارث ظاهرة عقلية تتناول الأشياء في معانيها، فإن البصيرة هي ظاهرة عقلية، ولكنها تختلف عن غريزة الفهم إذ أن البصيرة هي غريزة النفاذ إلى ما وراء الأشياء لمعرفة قيمتها الإلهية من ناحية، وقيمتها الأخلاقية من ناحية أخرى. والإنسان ببصيرته قادر على أن يتعرف على عظيم قدر الأشياء النافعة في الدنيا

والآخرة، وهذا هو معرفة العقل عن الله عز وجل (٦٢). وإلى هذا المعنى، العقل بمعنى البصيرة، أشار ابن الجوزي عند الحديث عن معنى العقل، فقال: "معرفة عواقب الأمور التي تقود إلى قمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة" (٦٣).

وبعد بيان معنى العقل وأهميته في الكتاب والسنة وأقوال العلماء وعند المحاسبي، تجد أن المحاسبي في مفهومه للعقل وإبراز أهميته لم يخرج عن الكتاب والسنة وأقوال العلماء، وهناك تطابق كبير بين مفهوم المحاسبي للعقل، ومفهوم الكتاب والسنة، وهذا يظهر من خلال استشهاده بالآيات القرآنية التي كان يدعم بها قوله.

المبحث الثاني: "أقسام العاقلين":

وبناء على المعاني التي أطلقها المحاسبي على العقل قسّم المحاسبي العاقلين إلى أربع فرق. فرقتان مقبولتان، وفرقتان مرفوضتان. أما الفرقتان المقبولتان فهما:

فرقة عقلت عن الله عز وجل عظم قدره، قال المحاسبي واصفا هذه الفرقة: "فرقة عقلت عن الله عز وجل عظم قدره وقدرته، وما وعد وتوعد فأطاعت وخشعت" (٦٤). هذه الفرقة من الفرق التي عقلت عن الله عز وجل ما خلق، وتدبرته ما أبدعه وصنعه، وعرفت قدر الأشياء النافعة في الدنيا والآخرة، وعقلت عظيم قدرته عز وجل وأنه قادر على كل شيء. عقلت عن الله عز وجل ما وعد به عباده الصالحين، وتوعد به الكافرين، فعندما عقلت هذه الفرقة كل هذه الأمور وعقلت عن الله عز وجل مراده. وعملت ما يرضيه عز وجل، فأطاعته وعملت بإخلاص من أجل مرضاته ونيل ثوابه، ثم خافت عقابه وعذابه "أصبحت من الفرق الناجية من عذابه عز وجل يوم القيامة".

الفرقة الثانية: عقلت عن الله عز وجل ولكن ليس بدرجة الفرقة الأولى، قال المحاسبي واصفا هذه الفرقة: "وفرقة عقلت قدر الله عز وجل في تدبيره وتفردته بالصنع، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به، وقدر العقاب في ضرره في مجانبة الإيمان فلم يجحدوا كبيرا ولا أنفة ولا طلب دنيا، لعقلها أن عاجل الدنيا يفنى" (٦٥).

هذه الفرقة أقل تعقلا من الفرقة الأولى، إذا أن هذه الفرقة عقلت عن الله عز وجل قدر ما ينجيها من عذابه وقدر ما يثيبها الله عز وجل على ذلك الإيمان، وربما قصرت هذه الفرقة في حق الله عز وجل فلم تؤد فرائضه كما يجب وغفلت عن بعض ما يجب عليها تجاه الله. فأصاب بعض الذنوب والآثام إلا أنها عقلت عن الله عز وجل بالقدر الذي ينجيها من عذابه وعقلت عظيم قدر الإيمان في النجاة.

وقد أشار إلى ذلك المحاسبي إذ يقول: "ولم تعقل عظيم قدر الله في هيئته وجلاله. وعظيم

قدر ثوابه وعقابه في إتيان معاصيه والقيام بفرائضه. فعصت وضيعت وعقلت ونسيت إلا أنها علمت عظيم قدر الإيمان في النجاة، وعظيم ضرر الكفر، قد عقلته عن الله فهي قائمة به دائمة عليه” (٦٦). أما الفرقتان اللتان رفضها المحاسبي فهما: “فرقة عقلت البيان لكنها جحدت كبرا وعنادا، وقد أشار المحاسبي إلى هذه الفرقة واصفا إياها بقوله: “فرقة عقلت البيان ثم جحدت كبرا وعنادا، لطلب الدنيا، كما وصف إبليس أنه تكبر وعاند كبرا، وكذلك اليهود” (٦٧).

هذه الفرقة عقلت عن الله عز وجل عقل بيان لزمتهم به الحجة ولكنهم لم يعقلوا عن الله عز وجل عظيم قدرته وقدره. ولذلك كانت هذه الفرقة من الفرق التي جحدت من باب الكبر والعناد، كما فعل إبليس لما أمره الله بالسجود لآدم فأبى ذلك عنادا وكبرا، فهو عقل الأمر، ولكنه رفض ذلك عنادا وكفرا، وهذا ما حصل مع اليهود أيضا. كانوا يعلمون أن القرآن حق. وأنه منزل من عند الله - عز وجل - على محمد - صلى الله عليه وسلم - لكنهم عنادا وكفرا وجحودا، رفضوا طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨). ولذلك لعقلهم الأمر والبيان الإلهي ألزمهم الله الحجة يوم القيامة.

الفرقة المعجبة المقلدة وهذه الفرقة من الفرق التي لم يقبل بها المحاسبي فقد وصفها بقوله: “فرقة طغت، وأعجبت، وقلدت، فعميت عن الحق أن تبيئه ثم تقر به، ثم اتجده كبرا وطلبت ديناً بعد عقلها للبيان، فظننت أنها على حق ودين وهي على باطل وشر وضلال” (٦٩).

وهذه الفرقة لم يتحرك لديها عقل الفهم وعقل البصيرة ولكن أصحابها كانوا أناسا مقلدين مكابرين، يقلدون الآباء، وقد أعجبوا برأيهم، دون أن يفهموا معنى للحياة، ودون أن يدركوا ببصيرتهم ما وراء هذه الحياة، فعميت أبصارهم وبصائرهم عن الحق وعن قبول الحق، ثم جحدت الحق مع علمها أنه حق، ولكنه تقليد الآباء والكبر وحب الدنيا وطلبها أعمائها عن قبول الحق، وهذا ينطبق على المشركين الذين رفضوا دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما كان رفضهم إلا كبرا وعنادا، ولذلك وصفهم الله عز وجل بأنهم كالأنعام، بل أشد ضلالاً من الأنعام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٠). أي أنهم عقلوا أمر دنياهم فقط، ولو أنهم تركوا الإعجاب بالرأي وتقليد الآباء، لعقلوا عن الله عز وجل ولتدبروا ما يريد.

العقل عن الله عز وجل:

وبعد أن بين المحاسبي، أقسام العاقلين، وحدد صفات كل قسم، شرع بعد ذلك في بيان من هو العاقل عن الله عز وجل وحدد صفاته. فالعاقل عن الله عز وجل في نظر المحاسبي، هو من كان

يخاف الله عز وجل ويتدبر آياته، ويعظم قدرته وقدره، المفكر في آثار صنعة الله عز وجل، وهو الذي خاف عذاب الله وعقابه وما أعد الله لأهل معصيته، ورجا جنته، وطمع بها. والعاقل عن الله عز وجل هو من فرق بين الدنيا والآخرة فعرف، أن الدنيا زائلة لا قيمة لها عند الله عز وجل يوم القيامة، وأن الآخرة باقية. وأعد فيها لعباده من النعيم المقيم، وهو من فقه عن الله عز وجل ما يحب وما يكره.

وقد بيّن المحاسبي كل هذا حينما سئل متى يسمى الرجل عاقلاً عن الله عز وجل؟ فأجاب بقوله: "إذا كان مؤمناً خائفاً من الله عز وجل، والدليل على ذلك، أن يكون بأمره قائماً مجاناً لما كره ونهاه عنه. فإذا كان كذلك، استحق أن يسمى عاقلاً عن الله عز وجل" (٧١). ثم وصف الحارث المحاسبي العاقل عن الله عز وجل بصفات ثلاث هي، الخوف من الله عز وجل، وقوة اليقين وحسن البصر بالفقه عنه مما أحب وكره، ويقول في بيان ذلك: "ولكن قد يسمى كاملاً في العقل عن الله عز وجل من غلب عليه من الأفعال التي كانت عن العاقل كاملاً من كانت فيه ثلاث خصال: الخوف من الله والقيام بأمره، وقوة اليقين وبما قال ووعد وتوعد، وحسن البصر بدينه عنه فيما أحب وكره ومن علم ما أمر به وندب إليه، والوقوف عند الشبهات التي سمى الله الوقوف عندها رسوخاً في العلم" (٧٢). فالعاقل عن الله عز وجل يجب عليه أن يكون دائم الخوف من الله مقدرًا مصير من عصاه، وشدة عقابه وعذابه، وشدة عذاب جهنم إن لم يعف عنه. والعاقل عن الله عز وجل يدرك تمام الإدراك ويوقن اليقين التام الذي لا ظن فيه أن الله عز وجل سوف يثيب المحسن ويعاقب المسيء، وأنه سوف يوفي بما وعد به عباده الصالحين الطائعين المطبقين لشرعه المنفذين لأوامره، وأنه سوف يعاقب من توعدهم من العباد الذين ابتعدوا عن الطريق الصحيح، وخالفوا أوامره. والعاقل عن الله عز وجل هو من كان فاهماً لدين الله عز وجل عاقلاً عن الله ما أمر به ونهى عنه، عرف الله سبحانه وتعالى فتوقف عند حدوده وشبهاته، خاف الله في السر والعلن، فأورثه الله عز وجل حسن البصر بدينه وذلك بالفقه عنه ما أحب الله من الأعمال الصالحة، وكره الله عز وجل من الأعمال السيئة فابتعد عن الشبهات التي تكون طريقاً لمعصية الله عز وجل.

ثم بيّن المحاسبي أن الناس متفاوتون في العقل من الله عز وجل، وأنهم غير متساوين في درجة العقل عن الله عز وجل يقول مؤكداً هذا: "بالعقل رغبوا ورهبوا، وزهدوا، وانتقلوا إلى الرشد، وعلوا به في الدرجات" (٧٣).

المبحث الثالث: مصادر الحارث في العقل:

لقد استطاع المحاسبي أن يقف على معظم العلوم التي كانت سائدة في عصره، فقد أخذ من المحدثين وعرف منهم، وأخذ عن الفقهاء وعرف منهم، وعاصر المعتزلة واتجه إلى علم الكلام

ودرسه، وذلك من أجل الرد على مزاعم المعتزلة، وبهذا كان يجمع بين منهج المحدثين والفقهاء وأهل الكلام. وكان من زهاد الصوفية ومؤسس مدرستها، وهذه الفرقة كانت تؤثر الآخرة على الدنيا. ونتيجة لهذا الأمر اختار المحاسبي طريقا وسطا يجمع فيه بين هذه المناهج.

أما بالنسبة إلى مذهبه العقلي فقد سلك المحاسبي في مذهبه العقلي، طريقا وسطا، وارتكز فيه على أساس وتفرغ عن هذا الأساس أمران، فالأساس هو الإيمان بالله، والأمران الآخران هما: العلم والعقل. يقول مؤكدا هذا "كل زاهد زهده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر قوة إيمانه" (٧٤). أي أنه يجعل الإيمان هو الأساس، والعلم والعقل يحكمهما الإيمان، وإنما هما عاملان لتقوية الإيمان. فالعقل أداة الإيمان والناس يتفاوتون في تحقيق ذلك، قال المحاسبي مؤكدا هذا "فإن تفاوت الزاهدين على قدر صحة العقول، وطهارة القلوب، فأفضلهم أعتقلم، وأعتقلمهم أفهمهم عن الله عز وجل، وأفهمهم عن الله أخوفهم من الله عز وجل، وأخوفهم من الله أحسنهم قبولا عند الله عز وجل" (٧٥). أي جعل العقل علامة على الإيمان، وصاحب العقل السليم هو الذي يستطيع أن يتأمل في ملكوت الله عز وجل. وهذا المعنى ذكره المحاسبي حيثما قال: "ومن عقل عن الله عز وجل ما قال، فقد استغنى به عن كل شيء وعز به من كل ذل" (٧٦).

ويتبين لنا أن المحاسبي في حديثه عن العقل لم يخرج عن الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح والفقهاء والمحدثين الذين أخذ عنهم، ولذلك جاءت مصادره على النحو التالي:

القرآن وآراء المفسرين:

ويظهر هذا من خلال استشهاد المحاسبي بآيات كثيرة تدل على العقل وإعماله من خلال التفكير والتدبر والتأمل. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٧٧) وقال الله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٧٨)، وقال الله تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧٩). وهذه الآيات التي استشدها بها وآيات أخرى أثناء حديثه عن العقل في كتابه فهم القرآن. استشده بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٨٠). وقد ذكر جملة من أقوال المفسرين حول معنى هذه الآية من بينها قول مجاهد عن معنى "شاهد" شاهد القلب، ليس بغائب، فعندها شاهد قلبه الغيب كرائي العين (٨١).

الحديث:

ذكر المحاسبي جملة من الأحاديث التي يرويها بسندها عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في العقل وفضله، ولكن العلماء توقفوا عند هذه الأحاديث فبعضهم أخذ بها، والبعض ضعفها،

والبعض قال إنها أحاديث موضوعة لا يصح منها شيء عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد بينّا ذلك عند الحديث عن العقل في الكتاب والسنة. وقد اعتبر المحاسبي أن الأحاديث التي وردت في العقل صحيحة، وإن جاء بعضها بإسناد ضعيف، وأن روحها تتفق مع الإسلام ولا تعارضه، ومما روى "لا يقبل الله صلاة عبد ولا صومه ولا حجّه ولا عمرته ولا صدقته ولا جهاده، ولا شيئاً مما يقول من أنواع البر إذا لم يكن يعقل" (٨٢).

أقوال السلف:

لقد تأثر المحاسبي في حديثه عن العقل بأقوال من سبقه من السلف الصالح حين تكلموا عن العقل وبيّنوا معناه. فقد تأثر المحاسبي بقول الإمام علي بن أبي طالب في حوارته مع شخص حول وظيفة العقل يقول فيه مخاطباً له: "ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؟ فقال السائل: بلى، قال: تعرف تفسيرها؟ فقال: لا يا أمير المؤمنين، علمني مما علمك الله، فقال علي: "تفسيره: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله عز وجل". ثم سأله: "أعقلت عن الله؟ فقال: عقلت، فقال له: الآن صرت مسلماً! قوموا إلى أحيكم المسلم وخذوا بيده". وكان هذا في معرض حديثه عن القدرية (٨٣). والمحاسبي يقول ما يشابه هذا القول "لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان عقله، وجوهر العقل التوفيق" (٨٤). يشير هنا إلى توفيق الله عز وجل وهو قول يساوي ويوازي قول الإمام علي "إلا بالله". وهنا يبيّن وظيفة العقل، وهي حسن الوقوف على نعم الله عز وجل لاختيار الأحسن والأفضل.

أقوال الفقهاء والمتكلمين:

وقد ظهر مثل هذا في كتابه "ماهية العقل" و "فهم القرآن" وذلك حينما تصدى للرد على المعتزلة والفرق الأخرى، وذلك بعد إيراد آرائهم ثم الرد عليها. وظهر هذا أيضاً في اهتمامه الشديد بالتعاريف الرقيقة للكلمات مثل، ما هو العقل، ما هي التوبة، ما هو الورع، وما هو الزهد، وهذا كله من آثار ثقافته الكلامية التي ظهرت في عصره (٨٥). وبعد أن عرفت المصادر التي استقى منها المحاسبي حين الكلام عن العقل، يلاحظ أنه لم يقدم العقل على القرآن ولا على سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنما حذر من الاعتماد على العقل كل الاعتماد، لأن للعقل حدوداً ينتهي عندها. وقد أكد هذا بقوله: "والخبر يدل على صدق، فمن تناول الفرع قبل أحكام الأصل سفه" (٨٦) ويقصد بالخبر هنا القرآن والفرع العقل. ويحذر أيضاً من الاعتماد على العقل فيما يتصل بالسنة. إذ يقول: "فالسنة لا تكتسب بالعقل، إنها تكتسب بالتمثل بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبالخضوع لأحكام القرآن" (٨٧).

المبحث الرابع: البحث العقلي عند المحاسبي:

يعتبر العقل ركيزة البحث في المعرفة، وذلك أن العقل يتأمل ويفكر ويتدبر، ويبحث ويصل إلى نتائج من خلال هذه المقدمات. وقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان أن يفكر ويبحث ويتأمل بعقله، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٨٨).

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٨٩).

يطلب الله سبحانه وتعالى من عباده السير في الأرض والتفكير في خلق الله سبحانه وتعالى المتقن المحكم، وذلك من خلال إعمال العقل بالبحث والتفكير والتدبر والتأمل. والقرآن الكريم يقدم العقل في سورة بسيطة غير معقدة يقدمه عقلا متأملا في الطبيعة، دارسا لظواهرها، مفكرا فيما هي عليه من دقة ونظام وإحكام، حتى يصل إلى اليقين الثابت ألا وهو معرفة خالقه سبحانه وتعالى، وأنه الواحد الأحد، وذلك من خلال البحث العقلي. وهذا الأمر هو ما سار عليه المحاسبي إذ أنه يعتبر العقل وسيلة المعرفة، ويدعو إلى ربط العقل بالإيمان وقد تكرر هذا في كلامه "عقل عن الله آياته في تدبيره" (٩٠).

والمحاسبي يؤكد أن المعرفة نتيجة للعقل وليست هي العقل إذ يقول: "وقد زعم قوم أن العقل معرفة نظمها الله ووضعها في عباده، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار والذي هو عندنا أنه غريزة، والمعرفة عنه تكون" (٩١). ومنهج البحث العقلي الذي اتبعه المحاسبي يظهر هذا بوضوح في الرسالتين اللتين قدمهما إلى الناس وهما "رسالة في العقل" ورسالة في "فهم القرآن" فقد عرف العقل وبيّن أنه يطلق على ثلاثة معاني، ثم قسم العاقلين إلى أربعة أقسام ثم بيّن بعد ذلك من هو العاقل عن الله عز وجل، وذكر أوصافه. ولقد جد المحاسبي في مسألة البحث العقلي، وكما هو مبين في معاني العقل، فقد جعل من معاني العقل "الغريزة" والذي قال به بعض العلماء أمثال الإمام أحمد بن حنبل وغيره. وبالبحث العقلي نما هذا المعنى عند الحارث المحاسبي، وأضاف إليه كلمة "نور" وذلك حينما سئل عن العقل ما هو؟ قال: "هو نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم" (٩٢). وقد توصل المحاسبي من خلال البحث العقلي، إلى أن العقل غريزة جعلها الله سبحانه وتعالى علامة على البالغين من عباده وأقام به الحجة عليهم وبالبحث العقلي توصل المحاسبي أن العقل الغريزي لا يستدل عليه إلا من خلال أفعال القلب والجوارح (٩٣). وأن الأفعال الظاهرة هي صورها التي توصف ما وراء العقل تتمثل بالأمر التالية:

النطق:

وهو ما يقصد به الكلام المنظم المتناسق المتماسك الذي ترتبط به النتائج بالمقدمات، وهذا الارتباط يدل على أن وراء ذلك عقلاً غريزيا(٩٤).

الاستدلال:

وذلك عن طريق معرفة الأشياء، والتفريق بين هذه الأشياء مستدلاً عليها بما كان قد تعلم، وعملية الاستدلال عملية عقلية ظاهرية تدل على العقل الغريزي(٩٥).

الاختيار:

وذلك من خلال ما يفكر به الإنسان في هذه الدنيا وما بها من معطيات هذه الحياة الكونية، وعندما ينظر في أسباب هذه الحياة ويتفكر فيما وراءها، لا يجد الإنسان مفراً من الاختيار بين ما هو نافع وما هو ضار بالنسبة للدنيا والآخرة(٩٦).

وهذه الأمور السابقة كلها تتعلق بما يسمى بالجانب النظري للعقل عند الحارث المحاسبي. أما فيما يتعلق بالجانب العملي للعقل، وهو التطبيق العملي لما يتصل بالإنسان في حياته، وذلك من خلال العقل عن الله آياته والتفكر بها. وهذا يتمثل بالأمور التالية.

الفهم لإصابة المعنى:

وهو البيان لكل ما يسمع من أمور الدنيا والدين، فالفهم هو ظاهرة عقلية تؤدي إلى إصابة المعنى من جهة والقدرة على التعبير عن هذا المعنى من جهة أخرى(٩٧). يؤكد المحاسبي هنا على العقل العملي، وهو أن يترجم المرء ما يسمعه ويعقله إلى واقع عملي.

العقل البصيرة:

والعقل البصيرة لدى الحارث المحاسبي ظاهرة عقلية أيضاً ولكنها تتعدى الأشياء الواقعية إلى ما وراءها، وذلك من أجل بيان قيمتها الإلهية من ناحية، وقيمتها الأخلاقية من ناحية أخرى(٩٨). وهو الذي أطلق عليه المحاسبي العاقل عن الله عز وجل، الذي عقل عن الله قدرته وتسخيرها لهذا الكون، وعقل وعده ووعيده، وذلك بالبحث العقلي وإعمال العقل. وقد تنبّه المحاسبي في عملية البحث العقلي إلى قضية العاطفة، وأن على الإنسان أن يتخلص من هذه العاطفة، وذلك لأنها مفسدة للحكم على الأشياء وهذا، ما أكده بقوله: "والحب والبغض إذا أفرطاً أنقصا الاعتدال وأفسدا العقل، وصوّرا الباطل في صورة الحق"(٩٩). ويقصد بالحب والبغض هنا - العاطفة - وذكر أنها تفسد العقل، ولذا يجب على الإنسان التخلص من هذه العاطفة حتى يصل في بحثه العقلي إلى الحق

والصواب. وإذا استطاع الإنسان أن يتخلص من هذه العاطفة في حكمه على الأمور استطاع أن يكون في بحثه موضوعياً، غير متحيز لهذا الأمر انطلاقاً من عاطفته، ويقول المحاسبي عن هذا الأمر: "إن الحجة ظاهرة بنورها على الشبهة" (١٠٠). وهو ما أسماه المحاسبي "الفهم والبصيرة". وقد سلك المحاسبي في بحثه العقلي، البحث في صفات الله عز وجل، لأنها طريق إلى معرفة الله عز وجل إذ يقول "إن الباري سبحانه وتعالى ليس بغير صفاته" وصفاته متغايرة، صفات ذات وصفات معنى (١٠١). وأما منهج البحث العقلي لدى الحارث المحاسبي فقد تميّز بطرحه مسائل في العقل، تحتوي على صلب المنهج العقلي الذي تميّز به الحارث.

وقصده من طرح هذه المسائل هو إعمال العقل، والبحث العقلي، حتى يتوصل الإنسان إلى معرفة الله عز وجل عن طريق أدلة حسبة مشاهدة، من خلال ما أبدع الله في هذا الكون وأدلة سمعية نقلية بوحي من الله عز وجل. قال المحاسبي: "الحجة حجتان، عيان ظاهر أو خبر قاهر" (١٠٢)، والمقصود هنا أن الإنسان بما أنعم الله من نعمة العقل هو حجة عليه يوم القيامة، وسوف يحاسب الإنسان على أفعاله. وهذه الحجة إما أن تكون مما يشاهده الإنسان في هذا الكون، وإما أن تكون بخبر من السماء أوحى الله به إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم.

والعيان الظاهر: هو ما يشاهده الإنسان في هذا الكون من تنظيم دقيق قد بلغ الغاية في الدقة، ويدل هذا على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأن على الإنسان أن يعمل عقله وذلك بالتأمل والتفكير والتدبر، حتى يصل به عقله إلى خالق هذا الكون، وأن خالق هذا الكون واحد لا شريك له. والخبر القاهر: هو وحي الله الذي أوحى به إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وذلك من خلال التفكير والتدبر والتأمل بمدلول هذه الآيات وما تضمنته من قدرة الله عز وجل، والإنسان مطالب بأن يعقل ويفهم ما ورد في هذه الآيات، وبالتالي يختار الإنسان بعقله ما يرضي الله عز وجل ويكفل سعادته في الدنيا والآخرة.

وقد جعل المحاسبي كلاً من العيان المشاهد والخبر القاهر علة الاستدلال وأصله، إذ يقول: "والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله، ومحاله، كون الفرع مع عدم الأصل وكون الاستدلال مع عدم الدليل، فالعيان شاهد يدل على غيب والخبر يدل على صدق، فمن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سفه" (١٠٣). يؤكد هنا أن الكون وما فيه دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، وكذلك القرآن وما ورد فيه من آيات محكمة دليل على الخالق سبحانه وتعالى، والاستدلال على وجود الخالق لا يكون إلا منهما ولذا كانا هما الأصل. والفرع هنا هو العقل، وهو الذي يستدل، وأنه لا معنى للعقل

المستدل دون وجود. وأن الأخذ بالعيان الظاهر والخبر القاهر أحق من الأخذ بالعقل وأولى، وهذا الكلام من الحارث لا ينفي البحث العقلي، وإنما يثبت له حقه في البحث والتفكير والاعتبار والتأمل حتى يعقل عن الله عز وجل، إذ يقول "ورب حق أحق من حق" (١٠٤).

ثم أكد الحارث المحاسبي على البحث العقلي "العقل العملي" وهو التطبيق العملي الحياتي لما يعقل الإنسان عن ربه عز وجل، من خلال التأمل والتدبر والتفكير، إذ لا معنى للعقل النظري عند المحاسبي إذا لم يترجم الجانب النظري إلى واقع عملي في حياته. ويقول مؤكداً هذا: "وما تدبر آياته إلا اتباعه بعقله، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضافة حدوده، حتى أن أحدهم ليقول: "إنسي لأقرأ القرآن فما أسقط فيه حرفاً وقد - والله - أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل" (١٠٥). فالإنسان الذي لا يعقل عن الله سبحانه وتعالى كلامه، ولا أوامره ونواهيته، ولا يرى أثر ذلك في أخلاقه العملية في حياته اليومية، لا يسمى إنساناً عاقلاً لأنه لم يعقل عن الله عز وجل عظيم كلامه، ولذا يجب على الإنسان أن يتحلى بالأخلاق القرآنية التي دعا إليها، وأن من يفعل ذلك ويسلك الطريق المستقيم ضمن الله له طريق السلامة والسلوك للطريق المستقيم، قال المحاسبي: "ثم أخبرهم أن اتباع ما فيه سلوك للصراط المستقيم، والنور المبين والعصمة لمن تمسك به من كل هلكة وشفاء لما في الصدور" (١٠٦). وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا الأمر قال تعالى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٠٧). وبناء على هذا فالإنسان الذي يعمل عقله، بالبحث والتفكير والتأمل والتدبر، وذلك بعقله وفهمه عن الله عز وجل آياته، هو إنسان يصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

أثر بحثه العقلي في الفكر الإسلامي:

أكد المحاسبي على تربية العقل، لما له من دور متميز في إنماء الفكر الإسلامي، وقد كان أثر تربيته واضحاً في الفكر الإسلامي، وذلك من خلال من جاء بعده، إذ أنهم اعتمدوا اعتماداً كبيراً في تربيتهم العقلية والبحث العقلي على ما جاء به المحاسبي. وقد كان تأثيرهم هذا نابعاً من أن المحاسبي، كان قوي الحجّة، وذلك بسبب نزعة الكلامية التي كان قد تبناها أثناء ردوده على المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام. ومن الذين تأثروا بنزعة العقل عند المحاسبي، السري السقطي (١٠٨)، الذي يؤكد على تربية العقل تربية صحيحة وذلك بالاعتماد على الكتاب والسنة، وهذا الأمر هو ما يؤكد عليه المحاسبي في بحثه العقلي (١٠٩). وأما أبو بكر بن أبي الدنيا (١١٠) فهو يعتبر أن العقل غريزة وضعها الله تعالى في خلقه، وهذا ما ذهب إليه كذلك المحاسبي (١١١). ومن الذين تأثروا بهذا الفكر كذلك ممن جاءوا بعد المحاسبي أبو حامد الغزالي (١١٢) الذي نقل كثيراً من كلام المحاسبي في

العقل، كما هو من غير تغيير للألفاظ، وقد اتفق مع المحاسبي في كثير من تقسيماته للعقل وبيان لهذه الأقسام (١١٣). وكذلك التقى ابن الجوزي (١١٤) مع المحاسبي في بعض القضايا في التربية العقلية، منها أنه أطلق على العقل بأنه غريزة. وفي حديثه عن ثمرة العقل وفائدته كان مطابقاً تماماً لما ذكره المحاسبي وكذلك في تعريف العقل وما إلى ذلك من هذه القضايا (١١٥).

فالمحاسبي في تربية العقل، قد وضع للعقل ضوابط متمثلة في الابتعاد عن العناد والمكابرة والجحود وتقليد الآباء، لأنه يريد عقلاً مفكراً عاملاً، باحثاً، لا عقلاً متبعاً مقلداً، يفكر عنه غيره، لأن العقل المقلد المتبع لا يمكن أن ينمي الفكر ولا أن يثريه، ويضيف إليه شيئاً جديداً.

وهكذا ظهرت الأصالة والعمق في فكر المحاسبي من ناحية العقل. من خلال حديثه عنه ومعانيه وتقسيمه للعاقلين، ومعنى العاقل عن الله ... إلخ.

هوامش

- ١- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس. (د.ط) (د.ت) دار الثقافة، بيروت، ٥٧/٢، والذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط ٢، ١٩٨٤م. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١١٠/١٢.
- ٢- الذهبي، نفس المصدر، ١١١/١٢.
- ٣- المسقلاني، تهذيب التهذيب، (د.ط). ١٣٢٥هـ. دار المعارف، بيروت، ٤٣٠/١.
- ٤- ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦١.
- ٥- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تصحيح محمد سعيد. (د.ط) (د.ت) دار الكتب العربي، بيروت، ٢٢١/٨.
- ٦- الغزالي، المنقذ من الضلال، تعليق وتصحيح: رشيد أحمد الجالندهرى، نشر هيئة الأوقاف بحكومة البنجاب، لاهور. طبعة نيو حبيب بريس. ط ١، سنة ١٩٧١م. ص ٣٤ و ٣٥.
- ٧- السبكي، طبقات الشافعية، ط ٢، (د.ت) دار المعرفة، بيروت، ٣٧/٢.
- ٨- الشهرستاني، الملل والنحل، (د.ط) ١٩٨٣م. دار المعرفة، بيروت، ١١٨/١.
- ٩- ابن خلكان. نفس المصدر، ٥٨/٢.
- ١٠- انظر الخضري. تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، (د.ط) (د.ت) المكتبة التجارية الكبرى، مصر. ص ٩٣-١٠٦.
- ١١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، تحقيق حسين القوتلي. ط ٢. ١٩٧٨م. دار الفكر. بيروت ص ٩٣-٩٤.

- ١٢- المحاسبي، القصد والرجوع إلى الله، تحقيق عبد القادر وعطاء (د.ط)، ١٩٨٠م، دار التراث العربي، بيروت، ص ٢٣.
- ١٣- أمين أحمد، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط ٨، ص ١/١٩١-١٩٢.
- ١٤- المحاسبي، الرعاية لحقوق الله، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ١٩٨٤م، دار المعارف، بيروت، ص ٩.
- ١٥- ابن منظور، لسان العرب، ١١/٤٥٨-٤٦٠.
- ١٦- سورة البقرة، الآية: ١٧١.
- ١٧- سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
- ١٨- سورة محمد، الآية: ٢٤.
- ١٩- سورة الحشر، الآية: ٢.
- ٢٠- مسلم، صحيح مسلم (بشرح النووي)، (د. ط) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٣/١٢.
- ٢١- مسلم، نفس المصدر، ١١/٢٠٢-٢٠٣.
- ٢٢- ابن حبان، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محيي الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٦.
- ٢٣- ابن الجوزي، ذم الهوى، تصحيح: أحمد عبد السلام عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٥.
- ٢٤- أبو بكر بن أبي الدنيا، العقل وفضله، تحقيق لطفى محمد الصغير و د. نجم عبدالرحمن، ط ١، دار الراية، الرياض، ١٩٨٩م، ص ١٥.
- ٢٥- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ط ٤، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٨م، (م) ١٣١.
- ٢٦- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ١٢١-١٢٢.
- ٢٧- ابن الجوزي، الموضوعات، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان، ط ١، ١٩٩٦م، ١/١٧٤-١٧٥.
- والمجلوني، كشف الخفاء، (د. ط)، (د. ت) مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ١٧٥/٢.
- ٢٨- ابن الجوزي، نفس المصدر: ١/١٧٥.
- ٢٩- ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب، تحقيق د. زينب إبراهيم، (د.ط) دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٣٣، قدرى طوقان، ومقام العقل عند العرب، ص ٦٣٤.
- ٣٠- الزركلي، الأعلام، ط ٦، ١٩٨٤م، دار العلم للملايين، بيروت، ٧/٢٥٨.
- ٣١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، ذم الهوى، تحقيق مصطفى عبد الواحد (د.ن) (د.م) ط ١، ١٩٦٢م، ص ٩.
- ٣٢- الذهبي، نفس المصدر، ٤/٥٨٧.

- ٣٣- ابن الجوزي، المرجع السابق، ص ٩.
- ٣٤- الزركلي، نفس المصدر، ٢٣٥/٤.
- ٣٥- ابن الجوزي، ذم الهوى، ص ١١.
- ٣٦- الذهبي، العير في أخبار من غير، ٣٨٧/٢.
- ٣٧- الغزالي، إحياء علوم الدين، (د. ط.) - (د. ت) دار المعرفة، بيروت، ٨٣/١.
- ٣٨- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، ٣٣١-٣٢٩/٤.
- ٣٩- ابن الجوزي، صيد الخاطر، (د. ط.) (د. ت) دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢١١.
- ٤٠- ابن الجوزي، نفس المصدر، ص ٤٥٠.
- ٤١- ابن الجوزي، نفس المصدر، ص ٤٨٥.
- ٤٢- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، تحقيق حسين الوتلي، ط ٢، ١٩٧٨م، دار الفكر، بيروت، ص ٢٠٨.
- ٤٣- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٠٨.
- ٤٤- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٤١٠.
- ٤٥- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٠١-٢٠٢.
- ٤٦- المحاسبي، شرف العقل وما هيته، ص ١٨.
- ٤٧- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٥-٢٠٦.
- ٤٨- سورة البقرة، الآية: ٣٢.
- ٤٩- ابن الجوزي، ذم الهوى، ص ٥.
- ٥٠- ابن الجوزي، أخبار الأذكىاء، تحقيق محمد موسى الخولي، (د. ط) ١٩٨٠م، ص ٩.
- ٥١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٦.
- ٥٢- سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
- ٥٣- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٨.
- ٥٤- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٢.
- ٥٥- سورة الحج، الآية: ٤٦.
- ٥٦- سورة البقرة، الآية: ٧٥.
- ٥٧- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢١٢.
- ٥٨- سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
- ٥٩- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ١٥٣.
- ٦٠- سورة البقرة، الآية: ٧٥.
- ٦١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢١٠.
- ٦٢- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٥٣-١٥٤.

- ٦٣- ابن الجوزي، أخبار الأذكياء، ص ٥.
- ٦٤- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢١٥.
- ٦٥- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢١٦.
- ٦٦- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢١٦.
- ٦٧- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢١٥.
- ٦٨- سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
- ٦٩- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢١٦.
- ٧٠- سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
- ٧١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢١٨.
- ٧٢- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٢٠.
- ٧٣- المحاسبي، الوصايا، تحقيق عبد القادر أحمد عطاء (د. ط) (د. ت) مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ص ٨٦.
- ٧٤- المحاسبي، القصد والرجوع إلى الله، ص ٥٥.
- ٧٥- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٥.
- ٧٦- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٣٠٧.
- ٧٧- سورة الرعد، الآية: ١٩.
- ٧٨- سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
- ٧٩- سورة يونس، الآية: ٢٤.
- ٨٠- سورة ق، الآية: ٣٧.
- ٨١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٣١٣.
- ٨٢- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٢١-١٢٢.
- ٨٣- الإسفرايني، التبصير في الدين، تحقيق: الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثني ببغداد، ص ٨٤.
- ٨٤- المحاسبي، الوصايا، ص ١٣٩.
- ٨٥- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ١٣٩.
- ٨٦- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٣٢.
- ٨٧- عبد الحلیم محمود، أستاذ السائرين، (د. ط) (د. ت) دار الكتب الحديثة، القاهرة، ص ٩٨.
- ٨٨- سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.
- ٨٩- سورة الحج، الآية: ٤٦.
- ٩٠- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٢٥.
- ٩١- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٠٥.

- ٩٢- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٤٧.
- ٩٣- المحاسبي، شرف العقل وماهيته، ص ١٩.
- ٩٤- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ١٥٠.
- ٩٥- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٥١.
- ٩٦- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٥١.
- ٩٧- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٥٣.
- ٩٨- المحاسبي، نفس المصدر، ص ١٥٣.
- ٩٩- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٣٣.
- ١٠٠- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٣٤.
- ١٠١- الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، صححه هلموت ريتز، (د. ط) ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٥٤٦.
- ١٠٢- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٣٢.
- ١٠٣- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٣٢.
- ١٠٤- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٣٢.
- ١٠٥- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٧٦.
- ١٠٦- المحاسبي، نفس المصدر، ص ٢٧٦.
- ١٠٧- سورة طه، الآية: ١٢٣.
- ١٠٨- انظر ترجمته عند: السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريفة، ط ١، دار الكتاب العربي بمصر، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ص ٤٨.
- ١٠٩- السلمي، نفس المصدر، ص ٤٨.
- ١١٠- انظر ترجمة ابن أبي الدنيا عند: الذهبي، تذكرة الحفاظ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، - الهند، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ص ٦٧٧/٢-٦٧٨.
- ١١١- المحاسبي، العقل وفهم القرآن، ص ٢٠٢.
- ١١٢- الذهبي، العبر في أخبار من غبر، تحقيق محمد سعيد زغلول، ط ١، ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٨٧/٢.
- ١١٣- الغزالي، إحياء علوم الدين، ٨٥/١.
- ١١٤- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (د. ط) (د. ت) التراث العربي، بيروت، ٣٢٩/٤.
- ١١٥- ابن الجوزي، ذم الهوى، ص ٥، ١٠، ابن الجوزي، أخبار الأذكىاء، ص ٥.

* * * *